الصورة الاجتماعية في الرحلة المغربية لأمين الريحاني

د.محمد سرير
جامعة المدية

الملخص:
عرفت الكتابة العربية جنسا أدبيا تمثل في أدب الرحلة، الذي كان نتيجة رحلات أدباء وفقهاء وسفراء، عملوا على تدوين أحداث ومشاهدات الرحلة، و من بين هؤلاء نجد الرحالة أمين الريحاني الذي جال في بالد المغرب وسجل لنا ما رآه مضمنا ذلك آراءه الشخصية وانتقاداته المعرفية، فقد عمل على تشريح المجتمع بما فيه من عوامل محركة له، فقد نظر إلى المرأة وإلى الرجل، كما عمل على اكتشاف الأجناس البشرية المكونة للمجتمع، ولم يفته تحديد الممارسة اليومية للأفراد فنظر إلى الزراعة والصناعة والتجارة، كما درس جماليات المدينة وما يحيط بها، وكان ذلك وفق بناء أدبي جميل.

الكلمات المفتاحية: الرحلة، الريحاني أمين، الخطاب، الآخر، الصورة.

Summary:
Arabic literature has been known as a literary genre represented in the literature of the journey, which was the result of trips of writers and jurists and ambassadors, they worked on the recording of events and observations of the trip, among them find travelers Amin Rihani, who toured the country of Morocco and recorded what he saw included his personal views and criticisms knowledge, He worked on the dissection of the society, including the factors driving him, he looked at women and men, and worked on the discovery of the human races that make up the society, and did not fail to determine the daily practice of individuals, he looked at agriculture, industry and trade, and studied the aesthetics of the city and its surroundings, Beautiful literary building.

Keywords: Trip, Rihani Amin, Speech, Other, Image.

مقدمة:

يتكون الخطاب الرحلي من تراكمات معرفية، حوت التجربة الكتابية للرحالة، حيث يظهر لنا واصفا ومخبرا لما رآه وعاينه سالكا أسلوب الإقناع، يسير الرحالة عبر مسار رحلي محدد ليحل بمنطقة المغرب التي خصص لها مجلدا خاصا، فقد جذبه إليها حسن طبيعتها وعادات سكانها، كما لم يغفل عن سياستها، فقد تحدث عن سكان المغرب فيهم البربر وإلى جانبهم العرب، إضافة إلى هذا نجد بعض الأجانب القلائل، الذين وجدوا مع وجود الاستعمار الفرنسي والاسباني، وقد حافظ المجتمع المغربي على الكثير من تراثه وتقاليده وعاداته، لكن هذا لم يمنعه من أن يواكب الحضارة، وبأن يهتم بالركيزة الأساسية في المجتمع، والمتمثلة في المرأة التي تنوعت صورتها داخل المجتمع المغربي بين المرأة الريفية، والمدنية، والأجنبية.

مثلت المرأة في الخطاب الرحلى جزء غير قليل، فقد جذبت عين الرحالة وكانت من المواضيع الرئيسة في كتاباته، كما ذكر المرأة الأجنبية عاملا على المقارنة بين الصورة العربية والغربية، وذلك لما كانت تتميز به المرأة الغربية من ثقافة أوربية أثرت بها على المرأة المغربية، من خلال لباسها ونمط عيشها، وتفكيرها، وإلى جانب هذا نجد اعتناء الرحالة بالموارد الاقتصادية للشعب المغربي، والمتمثلة في الصناعة والزراعة، فقد زار معاهد تعلم الحرف اليدوية يديرها معلمون اسبان، كما جال ببصره في الحقول وأبصر ما تزخر به من ثروة زراعية، فالرحالة يتتبع كل عمل للفرد يخدم به الجماعة.

كما نجد الرحالة أمين الريحاني قد أجاد في وصف فضاء المدينة، وما بها من مقومات الحياة، و وصف سكانها ونمط عيشهم، كما وصف النمط الثاني وهو القرية، التي تتسع رقعتها في المغرب، و تأخذ شكلا خاصا بها، هذا ما حاول تفصيله في الرحلة دارسا بذلك الحياة الاجتماعية للمجتمع المغربي.

أ. المدينة:

تعتبر المدينة من الفضاءات الاجتماعية والعمرانية، التي يسكنها الإنسان، عاملا فيها على تحقيق وجوده وكيانه، كما تعد فضاء للترحال، لتجد بذلك مجالا واسعا عند الرحالة، فهي أول ما يقع نظره عليها، فنراه يتأملها ويبصرها بعين نافذة وفكر متفحص مقارن، فقد امتازت مدن المغرب بصفات عدّة تداخلت فيها ثقافات متمايزة، جمعت بين الأصالة والمعاصرة.

نجده يصف مدينة طنجة قائلا: ((طنجة أوروبية حافلة بالصروح الفخمة، الحديثة الهندسة، والفن وبالشوارع والساحات الرحبة، الحاملة أسماء الأمم حبا وكرامة، فهذه ساحة إسبانيا، وذاك شارع باستور، وهاهنا جادة إيطاليا، وهناك شارع الإنجليز، وفيها كلها المقاهي والحانات البهيجة، خدامها في أثواب الخدم، لا أثواب البقالين والسقائين، كما في المقاهي البلدية، فتطلب منهم بلغة الإسبان أو الفرنسيين أو الإنجليز، وأنت جالس إلى مائدة من القش الملون، في كرسي بجانبها تطلب كأسك المعتاد، أبيسنت، ويسكي، شرى، سنزانو، كأنك في باريس أو في مدريد))[1]، يصف الرحالة المدينة بثقافتها المعاصرة، الموازية للحداثة، حيث الخدم باللباس الوظيفي، والشوارع ذات الهندسة الغربية، وكأنك في مدريد أو باريس، فالبلاد العربية تحولت إلى بلاد غربية، نرى الرحالة يعمل على المقارنة بين فضاءين متباعدين جغرافيا، ليجمعهما في الممارسة الاجتماعية، راميا إلى الوحدة الإنسانية والترابط الحضاري.

يخبرنا الريحاني عن فئة اجتماعية معينة، إنها فئة الفلاحين يأتون بما جادت به حقولهم، حيث نلمس صفة الغرابة والاندهاش عند الرحالة، لذا نراه يدونه في رحلته كنوع من النشاط الاقتصادي، هذا ما ينبئ عن فكرة العمل وبساطة العيش، فالعجوز تبيع البقدونس والصعتر، والفتاة تبيع الورد، نرى هذا التجانس بين البائع وسلعته، كما يجمع السوق رواة الحكاية، والمنجمون والراقص والزمار، كل بما أوتي من فن، والناس في حلقات يسمعون ويبتهجون ويندهشون، هي ذي الثقافة الشعبية للمغرب التي تنبئ عن حياة شعب عرف الحياة في بيع و شراء، ورقص وأنس، فقسم يومه قسمين جزء للتعب والشقاء، وآخر للراحة والهناء، حيث يكمل هذا بذاك، وتستقيم له معركة الحياة.

كما نجد من المناطق الجميلة في المغرب ، منطقة شفشاون التي تسحر زائرها وتبعث فيه الحياة، هي المدينة ذات الطبيعة الخلابة، وذات البنايات العجيبة، ولا تسأل عن هوائها وترابها، فهي لوحة إبداعية من الخالق، بها راحة للنفس، وجلاء للبصر، ولنترك الريحاني يصفها لنا كما رآها: ((صروح مديدة منخفضة ظاهرها أبدا جديد، صروح بيضاء كزهر السوسن، ناعمة كفجر الربيع مزخرفة منمنمة، صروح كقصور الجن بنات الخيال وقصص المحال، بعمد كفتيات الحور بأقواس كالنونات، خطها قلم ساحر فعكستها يد عابثة، صروح بتيجان اقتبست من أعالي الحصون لتنوح فوقها الحمائم وتغرد الحساسين، صروح لفنانين مولوهين، فروا من حقائق الوجود إلى حقيقة الحياة الخالدة، من الأشكال المتناثرة إلى الوئام والتجانس في وحدة الجمال، صروح خفيفة الظل فوق أرض قاسية، تحت سماء كلها بهاء وحنان، صروح كاللعب لأطفال الأرباب، وما هي باللعب ولا هي للاعبين))[2].

والرحالة مراقب ودارس محلل، قارئ لملامح الوجه ومختلج لخبايا النفس، راسم للمستقبل ومتخيل للماضي، ((الطريق وأبناء الطريق: رجال البوادي يسوقون الدواب المثقلة بأحمال الأرض الجوّادة، يسوقونها إلى المدينة بما تنبت الأرض وتثمر بالحطب والفحم والبقول والحبوب، وبنات البوادي بقبعاتهن الشبيهة بالمظلات، تتناعس تحتها العيون النجلي في سمرة الخدود، وهن ممتطيات ظهور الأتن الوديعة، الطائعة الصابرة المكدودة))[3].

يصف سكان المنطقة رجالا ونساء، وهم متجهون إلى المدينة، هذا ما ينم عن الحياة الفلاحية البسيطة، فالرحالة يعمل على تقديم صورة فوتوغرافية للقارئ متكاملة الأطراف، وكأنه يريد إشراك القارئ في رحلته عاملا على تزويده بالمعلومة، و مفسحا

له مجالا للتخيل والقراءة، دافعا عنه الملل ومحفزا له على المقارنة والتحليل، وذلك حينما ينقله من مكان إلى آخر، حيث يشبه هذا البلد المغربي بلبنان، فكليهما يأتيهما الربيع في وقت واحد، وينزل على كل منهما نفس الأزاهير والزينة، ((الربيع واحد في المغرب وفي لبنان، طرفي هذا الشاطئ الإفريقي الآسيوي، هو واحد في فيضه وأشكاله وزمانه ، يجيء البلدين على اليوم على الساعة في الرزنامة لا يبطئ ولا يسرع، ولا يتقدم ولا يتأخر، فيسمع صوت الحسون وتشهد طلعة السوسن في آن واحد هنا وهناك، وذي هي النباتات اللبنانية ذوات الأريج الكامن والمنتشر، الصعتر والقسعين والقندول الزاهر، وهاك الدفلى البيضاء والحمراء تتمايل على ضفتي النهر، وقد شاهدنا في بعض الأماكن شقائق النعمان والأصفر من الأقحوان))[4].

هو الربيع الذي يراه الريحاني، ويرومه في الأفق لكل البلاد العربية، التي اختلط ترابها بالتراب الأوروبي، كما اختلطت عاداتها وتقاليدها، لكن هي الطبيعة تحل بجمالها على أرض المغرب، فتحوله إلى تحفة، ينعم فيها الإنسان، عاملا على بناء حضارة، تزيد من مدنيته، وتظهر رقيه الفكري، وحسه الروحي.

ب. المرأة:

إن الرحالة قد رأى بمدينة طنجة النساء الأجنبيات اللواتي يعشن وسط المغربيات، وأكيد أن يكون لهن تأثير عليهن، فقد وصف لنا هذه الصورة في قوله: ((ورأيت النساء الأوروبيات في تبرج صياح، وزي فضاح، الشقراء منهن أكثر اشقراراً من أخواتها في باريس ومدريد، والحمراء الخدين والشفتين، أبلغ احمراراً من أوانس الجادة البيضاء بنيويورك، والألوان دام اتئادك من معلمي الكيمياء والعطور لا من الأبوين الطاهرين))[5].

يركز الرحالة على وصف المظهر الخارجي، الذي ينبئ عن عقيدة هؤلاء النسوة، اللواتي عملن على إظهار زينتهن والتباهي بها، وهي سياسة المرأة في فرض ذاتها، ولإثبات وجودها في مجتمع لا يريدها إلا كما هي عليه، و كأنها تجد نفسها في تيار جارف يجب أن تتبعه وإلا كانت منعزلة منبوذة، لا مكان لذاتها في واقعها.

إن المرأة كانت على طبيعتها، فهي الفاتنة الجميلة كما تعتبر المربية المحتشمة، لكن الثقافة الإسبانية قد أمدت المغرب ببعض قواعدها، فتبنته المغرب وحضارتها، ونعلم أن الريحاني ذو شخصية مخضرمة، فإنه يميل إلى ما هو أوروبي، فيرى فيه حداثة وتطورا، إن كان يخدم البشرية فيتركها تعيش عصرها كما تريده، أو كما يراد لها أن تعيشه، ((لم يكتب رحلته انطلاقا من منظوره الخاص، بل من المنظور المتعدد للثقافة التي نقلها معه، فكان نصه خليطا من المعلومات الجغرافية والتاريخية، والسياسية والفكرية، والأخبار والحكايات والأعاجيب، التي كانت مثار اهتمام متلقين مختلفين داخل ثقافة الرحالة))[6].

قد عمل الرحالة على تكرار الفعل رأبت دلالة على مباشرة فعل المشاهدة، كما نجد استعماله لضمير المتكلم ((كبؤرة مركزية للقول والفعل والمواقف باعتباره فاعلا وراحلا ومستمعا للعلماء ومنشدا للأشعار و معلقا على ما سمع أو رأى أو قرأ، باحثا ومحققا إنه يفعل ذلك ليضفي بعض الصفات المكتسبة على الذات لترشيحها تدريجيا لتكون شخصية عالمة محققة باحثة))[7]

هكذا تظهر شخصية الريحاني واصفا للمرأة المغربية التي أبصر فيها متعة وثقافة، تبقيها في دائرة القرينة للرجل في حياته، فهو يقر بتجربة حقيقية، مصدرا فيها حكما يراه موافقا لمرجعيته الثقافية.

إن الرحالة يعمل على الوصف والإخبار، مخاطبا المتلقي بما يراه مفيدا له، قد يكون فيه عاملا على التثقيف أو الإمتاع أو الإصلاح، ((فالرحلة بالنسبة إليه وسيلة نصية لإبراز رصيده الثقافي، و معرفته العلمية، و قدرته التعليمية التي لم تغادره لحظة واحدة))[8].

ج. الزراعة:

عرف المغرب الأقصى الزراعة منذ عهد مبكر، خاصة إذا علمنا أن سكانه الأوائل كانوا من البربر، وأهم شيء كانوا يعرفونه هو الزراعة، إضافة إلى هذا فقد كان الشعب المغربي يزاول هذه المهنة، جاعلا منها قوته اليومي، وعمله الذي يرى فيه رياضة ومتعة، إلا أن الزراعة أصبحت عاملا مهما من عوامل التطور الاقتصادي، وتحقيقا للاكتفاء الذاتي للبلاد.

أخبرنا الريحاني عما رآه من حقول مزروعة، وأيد تمارس عملها بكل جد ونشاط، إضافة إلى ذلك إذا علمنا أن العامل الأساسي للزراعة هو الماء، وهو متوفر حيث يوجد بالمغرب ستة أنهر وهي : ((نهر مارتيل المجاور لتطوان، ونهر لو النابع من جبل شفشاون، الجاري بين جبال بني حسن وبني سعيد إلى واد لو فالبحر، و نهرا النكور والفيس إلى شرق وغرب بني ورياغن، إلى جون الحسيماس شرقا، من سنخورخو و نهر إيجان الذي يجتمع بنهر الكرت في الناحية الشرقية، و يجري في أرض بوغفر إلى المتوسط، ثم أكبرها وأطولها نهر ملوية، وهو ينبع من جبال الأطلس إلى نحو أربعمائة كيلومتر من البحر، أما في الناحية الغربية فأكبر الأنهر نهر لوكوس، النابع من جبال جنوبي شفشاون، الجاري غربا إلى القصر الكبير، فالعرائش فالأقيانوس، وهناك أنهر صغيرة تجف في الصيف مثل أنهر لبنان الشتوية))[9].

كما عرف المغرب بزراعة، قيل أنها ممنوعة، لكنها كانت تزرع ولا وجود لقانون يمنعها، إنها زراعة الحشيش، أو ما يسمى بالكيف، وهو نوع من المخدرات موجود في المغرب، هذا ما نرى مثيله في اليمن لما كانوا يمضغون القات. يقول في ذلك الريحاني: ((ساعة القات عند أهل اليمن، مثل ساعة الشاي عند الإنجليز، و لكن القات غير الشاي، القات مخدرهم وتبغهم ومسكرهم، و هم يدمنونه إدمان الأوروبيين الخمر، قال شاعرهم العامي:

زمردا يقطف الأصحاب أوقاتــا يصفو به العيش أحيانا وأوقاتا

يا عاذلي عن حصول القات متكمدا لا نترك القات أحياءا وأمــوات

جميع الناس في اليمن من رجال ونساء و أولاد و من أغنياء وفقراء يأكلون القات يخزنون. و التخزين و أن تمضغ الأوراق مضغا بطيئا طويلا كما يمضغ بعض الأمريكيين التبغ ويحفظونها تخزينة "أي كتلة" في الفم يجترونها، و لكنهم لا يبصقون مثل الأمريكيين إلا عندما تذوب التخزينة إذ ذاك في إناء من نحاس ما تبقى منها ويخزنون غيرها، إن مجلس القات لا يتم بغير أباريق الماء وكؤوس النحاس الجميلة الشكل الشبيهة بالكؤوس الذهبية التي تستعمل في الكنائس وقت القداس))[10].

يواصل الرحالة سرد الخبر الناتج عن المعاينة البصرية الدقيقة، محاولا بذلك وصف الظاهرة ونقلها للمتلقي كما هي راميا إلى الإقناع، وإلى جعل المتلقي مشاركا له في الرحلة، وقد أفصح الرحالة بهذا في بداية الرحلة تاركا للقارئ مجالا للمتعة والمغامرة.

كما امتاز المغرب بزراعة الأشجار المثمرة وعلى رأسها الزيتون، وهناك أشجار أخرى يذكرها الريحاني: ((أما الأشجار فأكثرها ما يغرس منها في المغرب الخليفي التين والكرم، ثم الزيتون واللوز ثم المشمش والسفرجل، والرمان والليمون والبرقوق والتفاح والقراصية التي يسمونها حب الملوك))[11].

نلمس في أسلوب الرحالة نوعا من المزاوجة بين الأسلوب الإخباري الموضوعي، وأسلوب أدبي تحفه الشعرية التي تسمح له بدخول دائرة الأدب ((أن المزاوجة بينهما اقتضت تداخلا عجيبا بينهما بحيث إن الكاتب يجمع بين طرفي هذين الأسلوبين جمعا تأتي على منواله الكتابة في شكل نسيج يتداخل ويتعانق فيه الأسلوبان المذكوران تعانقا تلقائيا ينم بوضوح على تمكن كبير لدى الكاتب من الكتابة بشقيها العلمي و الأدبي))[12].

د. الصناعة:

إذا تحدثنا عن الزراعة فهذا لا يعني أن المغرب لم يعرف الصناعة، بل عرفها وعمل فيها بكل كد وبكل ما أوتي من معرفة وقدرة، وقد نريد بالصناعات تلك الصناعات الفردية التقليدية التي اتسمت بالبساطة في أدواتها و بالجودة في نوعيتها، توجد صناعة السجادة أو ما يسمى بالزربية التي تعتمد بالدرجة الأولى على اليد الفنانة.

وقد كان للأجنبي الإسباني دورا في هذا، حيث نجد في تطوان مدرسة الصناعات التي يترأسها السنيور "موريانو برتوشي" الفنان الإسباني الغرناطي، وقد كان من أهداف هذه المدرسة الحفاظ على الصناعات التقليدية التي تقترب من الإندثار، يروي لنا الريحاني ذلك عن السجاد فيقول: ((فإن كانت صناعة البساط "السجاد" من تلك الصناعات فهي إما مضمحلة، وإما مجددة للأصل الخشن الزري، وقفنا عند سجادة كبيرة و الأصح أنها تدعى بساطا أوروبيا، طولها ثلاثة أمتار، و قد جلست على الأرض أمام النول ثلاث بنات تعمل كل منهن في قسم منها، فتعقد العقدة تلو العقدة و تقطع أطرافها بالسكين، و هي تلزم الرسم المرسوم لها، إنه لعمل بطيء وغير دقيق ولا عجب فالناسجات طالبات ولا تنجز الواحدة منهم في اليوم الواحد أي في سبع ساعات أكثر من خمسة عشر سنتيمترا، ولكنها تتعلم وترتزق معا، فتكسب فوق الصناعة بسيطتين أو ثلاث بسيطات (عشرون أو ثلاثون قرشا) كل يوم، وعندما تتزوج تقدم لها المدرسة المواد اللازمة للعمل في بيتها))[13].

كما نجد صناعة النجارة وتكوين النجارين الذين يتعلمون على صناعة الجرة، والموائد والأطر، مماثلين في ذلك الصناعة العربية الأندلسية، كما نجد صناعة البلاط الأندلسي، وهي الآن مشهورة و معروفة عند المغاربة، ((أما صناعة البلاط الأندلسي العربي فلا تزال شائعة زاهرة، وفي مدرسة الصناعات فرع لها يتعلم الطلبة فيه الأولويات في جبل التراب، وسنّه وصبغه بالأصباغ، ثم تقطيعه مربعات ومثلثات ومخمسات، لصناعة الفسيفساء، أما الألوان و الرسوم فأكثرها مأخوذ مما يشاهد اليوم في دور الحمراء))[14].

توجد صناعة النحاس والحدادة و لها في ذلك صناع مهرة، ولا زالت هي أيضا موجودة خاصة أباريق الشاي، وما يمسى "بالصينية"، عبارة عن صفيحة من نحاس أبيض أو أصفر مرتفعة الجوانب بحوالي اثنين أو ثلاثة سنتيمتر، وعليها نقوش وزخرفة عجيبة، كما تجد صناعة الخناجر والبنادق، و هي صناعة قديمة بالمغرب، قد فرضتها متطلبات الحياة كغيرها من الصناعات، لكنها تبدو قليلة إذا ما قورنت بغيرها، ((ومن الصناعات المغربية القديمة المتسمة بميسم الفن المغربي صناعة الخناجر والبنادق (البواريد)، وخصوصا تلك البارودة الطويلة الرفيعة العنق الواسعة القبضة، التي تدعى "أم كحلة" المشهورة بهذا الاسم في المغرب، وقد أمست للزينة بعد عزها في ساحة الوغى، وليس لها في مدرسة الصناعات غير غرفة صغيرة و أستاذ واحد و طالبان اثنان أو معاونان له في المحافظة على مجدها وكيانها))[15].

هـ. الأجناس البشرية:

عرف المغرب تنوعا في الأجناس البشرية، و ذلك ما نجده فيه من بربر وعرب، وقلة من اليهود، ويعود هذا التنوع لجذور تاريخية جمعت بين الفتوحات الإسلامية، وهجرة بعض العرب من الأندلس إلى المغرب، هروبا من اضطرابات سياسية، و طلبا للأمان.

تعد معظم مدن المغرب الأقصى مدنا بربرية كطنجة وسلا وأزمور وأنفي وآسفي وبلدتا كاوست ولول من بلاد السوس. وفيما جاء عن أصلهم يقول ابن خلدون: ((وأما شعوب هذا الجيل و بطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس، و يلقب ماغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقول لشعوب برنس البرانس))[16].

إن تتبع الأجناس البشرية إذا كان لغرض علمي فهو مقبول، وإن كان لغرض سياسي يقصد به التفرقة و العنصرية و قيام مبدأ العصبية فهذا هو المرفوض برمته، والشعب المغربي يعيش منذ زمن طويل كشعب واحد متآلف، سواء كان بربريا أو عربيا، فالهدف الأساسي هو تحقيق وحدة عربية قومية وهذا ما يرويه الريحاني قائلا: ((ووجهة نظرنا هي وطنية إنسانية ووطنيتنا هي عربية قومية، لا عربية إسلامية، قد جهرنا بذلك مائة مرة ومرة، و لا ننفك نجهر به فكل ما نكتب عن هذه الأمة العربية ونهضتها وأشواقها وآمالها، إن كان في المشرق أم في المغرب وإن لنا في الوطنية غرضا أكبر فيها، وإن كان قائما عليها ومتصلا بها ما كتمناه مرة ولا حاولنا))[17].

إن الهدف الأسمى لهذا المجتمع يجب أن يكون وطنيا، بحكم أنهم يعيشون في وطن واحد، و إن كانوا فعلا من أجناس مختلفة فهدفهم في الحياة واحد، هو حفظ الوطن حتى يعيشوا فيه بسلام، و لو عدنا إلى التاريخ لرأينا كيف اتحد العرب مع البربر، بعد معارك بينهم، ثم كانوا يدا واحدة على العدو البيزنطي و الروماني، وحققوا بذلك فتوحات عدة وأشهرها فتح الأندلس الأول، تحت قيادة طارق بن زياد.

لكن الاستعمار يعمل على التفرقة حتى يسهل و يمهد طريقه للتملك والسيطرة، وجعل أفراد الشعب عبيدا له، و يترك العربي يقتل البربري والعكس، حتى يخلو له الجو ويحكم هو بكل راحة و طمأنينة، وسياستهم في الأقطار العربية معروفة، فقد وضعوا ((الفرعونية بمصر والفينيقية بلبنان، و البربرية بالمغرب الأقصى، اخترعوا هذه النعرات القومية القديمة، وهذه النزعات الثقافية القديمة، القومية ظاهرا والاستعمارية باطنا، هذه النزعات والنعرات التي لم يكن لها اسم أو أثر في الزمن السابق للحرب العظمى))[18].

ونستطيع القول أن الأجناس البشرية في كل مجتمع قد تكون متباينة، لكن التآلف الاجتماعي، و الوحدة الدينية والعلاقات الإنسانية، هي من تحقق الوحدة، ومتطلبات الحياة هي ما تفرض قوانينها على المجتمع، لكن إن دخلت العصبية سادت التفرقة، وبذلك يحل الهلاك والدمار.

إن الرحالة مجتهد في إعمال آلة العين التي تصور كل ما هو مرئي، ليقدم لنا الخبر على طريقتين تكون الأولى صورة مباشرة، حيث يكون بصفته ناقلا لا غير، و الثانية تتمثل في تقديم الصورة كما يراها هو فنراه فيها ناقدا مادحا أو ذاما، فيدخل ذلك ضمن ما يسمى بالصورولوجيا ((تشير إلى دراسة صورة شعب عند آخر باعتبارها صورة خاطئة))[19] يشير الناقد إلى أنها صورة خاطئة حسب وجهة نظره، فقد يكون تفسيره منافيا للحقيقة، لكن قد يكون قريبا منها، وهذا يبقى نسبيا، يخاطب الرحالة المتلقي، الذي يدرك أنه يقدم له ما يدهشه و يمتعه، و يترك درجة الصدق نسبية، وفي نفس الوقت يعمل على الإقناع.

إن النص الرحلي يحمل تراكما معرفيا كبيرا، مخاطبا حقبا زمنية مختلفة، ومؤرخا لعادات وتقاليد مختلفة، محاولا ملامسة الذات و نظرتها للآخر، هذا الأخير الذي ظل هاجسا يقظ نوم الرحالة، يريد معرفته و دراسته، خاصة إذا أحس أنه جزء منه، فالرحلة هي انتقال في الزمان و المكان لأجل دراسة صورة الآخر، في مختلف مستوياته الثقافية والسياسية والدينية والاجتماعية، كما تعتبر فضاء للمتعة الفكرية و الروحية.

الهوامش:

1 – أمين الريحاني، المغرب الأقصى، ص 83.

2 – المصدر السابق، ص 300

3 – المصدر السابق ، ص 301.

4 – المصدر نفسه ، ص 302.

5 – المصدر نفسه، ص 80.

6 –بوشعيب الساوري، دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، ط.1، 2007، ص 26

7 – إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، نسخة مخطوطة أطروحة دكتوراه، إشراف أ.د عبد الله العشي، جامعة باتنة، 2005، ص 131.

8 – عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، ط.1، 1996، ص 31.

9 – المصدر السابق، ص 146.

10 – أمين الريحاني، رحلات ملوك العرب، م 01، ص 99.

11 – المصدر نفسه، ص 151.

12 – عبد السلام صحراوي، أمين الريحاني في حياته و رحلاته، منشورات اتحاد كتاب العرب، سلسلة الدرارسات (4)، د.ط، 2010، ص 126.

13 – المصدر السابق، ص 137.

14 – المصدر نفسه، ص 138.

15 – المصدر السابق، ص 139.

16 – المصدر نفسه، ج 06، ص 116.

17 – الريحاني، الرحلات، م2، المغرب الأقصى، ص 452.

18 – المصدر نفسه، ص 453.

19 – سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط.1، 1985، ص 137.